
المنظومة
ALMANDUMAH


المنظومة
ALMANDUMAH

منهج القرآن في الخطاب الدعوى

الدكتور/ عبد الوهاب بن لطف الديلمي(*)

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

وبعد،،،

إن أي دعوة إلى الإسلام لا تقوم في أسلوبها ووسائلها على اقتفاء منهج القرآن الكريم، فلن يكتب لها النجاح، لأن الله سبحانه هو وحده العالم بأحوال النفوس البشرية وطبائعها وأمراضها، ومفاتحها، والتواءاتها، ومنعطفاتها.

كما أن النفوس تتفاوت من حيث قربها وبعدها من الحق، واستحكام الشر فيها من عدمه، ومدى ما وصلت إليه من العناد والاستكبار والبغي، أو سلمت منه، ولكل حال من هذه الأحوال أسلوبه ومنهجه وطريقة مخاطباته.

والقرآن الذي يخاطب أعداء الدعوة المناوئين لها، والمترصدين لها، والمتربصين بها الدوائر، والمحاربين لها في كل ميدان وبكل وسيلة ممكنة، كان يستمر في التخاطب معهم بألوان الخطاب.

وهذا يعني ضرورة حاجة الداعية إلى معرفة أحوال من يدعو، وحسن التخاطب معهم، واختيار الأسلوب والألفاظ التي تتناسب مع كل مقام، والداعية الناجح هو الذي لا يؤلب الناس على نفسه، ولا يسير في طريق يؤدي إلى تكثير الأعداء عليه، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن يعرف أنه مهما كانت عداوة الناس له فإنه مسئول عن دعوتهم، وترغيبهم في القرب من الحق والتزامه، ومعرفة أن القلوب بيد الله سبحانه، يصرفها ويقلبها كيف

(*) دكتور بجامعة صنعاء باليمن.

يشاء، وأنه عندما يريد سبحانه للعبد الهداية إلى الحق فإنه كلمة واحدة قد تحول من حياته، تجعله نصيرًا للحق محبًا متفانيًا في الذود عنه بعد أن كان بخلاف ذلك.

ولا ينبغي للداعية أن يقف ممن يدعوه موقف المعادي الذي يسعى إلى إنزال المكروه بخصمه، ويتمنى أن تحيط به الدوائر، فقد كان قلب رسول الله (ﷺ) مليئة بالرحمة، حتى صار يتسع للقريب والبعيد، والصديق والعدو، والمسلم والكافر، ولقد قال في حق من اشتدت عداوتهم وإيذاؤهم له: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم»(١) وقال لملك الجبال «وقد أرسله الله سبحانه إليه يستأذنه في أن يطبق على أعدائه الأخشبين بعد أذاهم الشديد له في الطائف» قال: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئًا»(٢)، وقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٣)، وقال: «رحم الله أخي موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(٤)، وقال الله تعالى في شأنه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾(٥) وما كان يغضب لنفسه قط.

وقد استمر الرسول (ﷺ) يدعو إلى ربه أصناف الناس، وكان فيهم الوثني، والكتابي والمنافق، والتابع والمتبوع، والرئيس والمرؤوس... وكان يسير في خطأ دعوته بتوجيه رباني يؤيده الوحي ويسدد خطاه، ويبصره بأساليب الدعوة، واستمر على هذه الحال ثلاثًا وعشرين عامًا، حتى نزل عليه قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾، وفي هذه الآيات بيان لنجاح دعوته، واتجاه الناس إلى الإسلام، وإكرام الله سبحانه له بفتح مكة التي كان أهلها قطب الرحى في التصدي للدعوة والتأليب عليها، والتشكيك فيها، وفي

حاملها، ونشر الشبهات حولها، وصد الناس عنها، فأقر الله سبحانه عين نبيه (ﷺ) وشرح صدره بأن مكنه من فتحها، حتى صارت دار إسلام بعد أن كانت دار حرب، وصار أهلها أنصارًا لدين الله سبحانه، وهم أصحاب القيادة والسيادة في الجزيرة العربية.

وهذا كله يحمل الدعاة على التأمل في سير الدعوة إبان نشأتها وتلمس طريقها، وترسم خطاها، وانطلاقًا من قول الله تعالى لرسوله عليها الصلاة والسلام: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦] فليبحث الدعاة عن البصيرة، التي سار عليها الرسول (ﷺ) ليكلل الله أعمالهم في دعوتهم بالنجاح، وليدرسوا دراسة واعية أساليب الدعوة في حياة الرسول (ﷺ) التي كانت ترجمة للتوجيهات الربانية، ولا يحيدوا عنها إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة، وتمليه الضرورة في أحوال الناس المستجدة من ابتكار الوسائل والأساليب النافعة، غير أن هناك ثوابت في منهج الدعوة، لا ينبغي تجاوزها ولا الاستهانة بها، بل الاستمساك بها هو علامة النجاح في الدعوة إلى الله تعالى.

وما نراه اليوم من أسلوب تنتهجه بعض وسائل الإعلام الإسلامية في خطابها مع الآخرين الذين يقفون من أصحابها موقف العداء والخصومة، ما هو إلا واحد من أساليب كثيرة من أساليب الدعوة، التي ينبغي أن تتجنبها في خطابها، فهي في الغالب تكتفي بتتبع أخطاء الآخر، ونشرها بهدف التشهير والفضح، وتدافع عن الدعاة في رد الافتراءات التي تقال عنهم، وتقف عند هذا الحد الذي من شأنه أن يحدث عند الآخر رد فعل للدفاع عن نفسه، والمعاملة بالمثل أيضًا حتى لا يتجاوز الأمر لدى الجانبين حد المنابزة

والتراشق بالألفاظ، وكيل الاتهامات ورصد الأخطاء وتلمس المعايب التي لا يخلو منها بشر وهذا لا شك أنه لا يجدي في مجال الدعوة شيئًا ولا يقطف ثمرة طيبة، إذا لم يتم إحاطته، إذا لم يتم إحاطته بأمور أخرى من أمور الدعوة، بل يجلب الكثير من الخصوم، ويوغر الصدور ويجعل الآخر يتمترس ضد خصمه.

لذلك ينبغي للدعاة أن يعرفوا أنه مهما كانت خصومه الآخرين ومهما وصل الكيد والمكر من جهتهم لخصومهم، فإن الداعية يظل داعية، لا يثأر لنفسه، ولا يعالج الأمور بمجرد ردود الفعل الآنية، بل يصبر ويحتسب مع استخدام الأساليب التي قد تجعل من العدو صديقًا، ومن المحارب للدعوة نصيرًا.

وإذا كان منهج القرآن الذي أشرنا إليه، ونصحنا بالاستنارة به، هو المنهج الذي تعامل به الرسول (ﷺ) مع أعداء الدعوة، وخصوم الإسلام، فمن باب أولى أن يتعامل به الدعاة اليوم مع سائر المسلمين، الذين يخالفونهم في رأي، أو سلوك أو أهداف، أو نحوها مما لا يخرج عن الملة.

ومما تجدر الإشارة إليه هو: أن الأسلوب الذي تمارسه الصحف الإسلامية اليوم من حصر معايب الآخرين، ونشرها هو نوع من التشهير، ومحاولة الحط من المدعو، والتنفير منه، وهذا- كما قلنا- لا يعطي نتيجة طيبة، فالقرآن الكريم- كما سنذكر- عندما استخدم هذا الأسلوب استخدم معه أساليب كثيرة، كلها كانت متعاضدة توصل إلى غاية محمودة، وتقطف الثمار المطلوبة، إما ي إقامة الحجة بالدليل والبرهان الناصع، وإما في الوصول بالآخر للإنشراح للحق والاهتداء إليه والاستمساك به، وهذه هي الغاية من الدعوة، والدعاة أطباء رحماء مشفقون بمن يدعونهم، يعرفون أن المدعو

مصاب بأدواء وأن التعامل مع الأدواء يحتاج إلى حكمة ورفق ولين، وكمال معرفة، وصبر على نفور المريض من الدواء الذي قد لا يبله- لمرارته- في أول وهلة بيسر وسهولة.

وهذا البحث عن منهج القرآن الدعوى يقوم على فقرتين وخاتمة:

الأولى: تقديم بعض أساليب القرآن الكريم التي انتهجها في الدعوة إلى الإسلام.

والثانية: بعض الأساليب التي استخدمها النبي (ﷺ) في الدعوة تطبيقا للتوصيات الربانية في القرآن الكريم:

- **الفقرة الأولى: أساليب القرآن الكريم في الدعوة:**

١- استعمال أسلوب الحوار مع الأعداء، وهذا الأسلوب ورد كثيرًا في القرآن الكريم، بدءًا بالحوار مع إبليس الذي استكبر عن الامتثال لأمر الله عز وجل، وحلت عليه لعنة الله، وكذا حوار الأنبياء مع أقوامهم، الذي كان من أبرز معالم الدعوة إلى الله تعالى، والذي ظهر من خلاله إقامة الحجة والبرهان على الخصوم، وتساقطت معه كل دعوى وشبهة عند المعاندين الجاحدين ضد الرسل وما أرسلوا به، والأمثلة في القرآن معلومة عند كل قارئ لكتاب الله تعالى، ولا يحتاج هذا الأمر إلى مزيد إيضاح ولا على ذكر نماذج له.

٢- ذكر حجج الأعداء وتفنيدها، وهذا أيضًا ورد كثيرًا في القرآن الكريم، من ذلك إنكارهم وحدانية المعبود سبحانه، واستنكارهم إبطال ما كان عليه آباؤهم من عبادة غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ * وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا

وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾(٧) وهذه الدعوى الباطلة جاء القرآن بتفنيدها بصور كثيرة منها:

أ- بيان عجز ما يعبدون من دون الله، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرصا ولا نفعًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(٨).. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ب- الاستدلال بما يعترفون به من وحدانية الله سبحانه- في الخلق وتصريف أمور الكون، وفي الإحياء والإماتة، والرزق وغيرها- على صحة ما ينكرونه ويجادلون فيه من وحدانيته سبحانه في العبادة، من ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ * كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(٩) والآيات في هذا النوع كثيرة أيضًا.

ج- لجوؤهم إلى الله سبحانه وحده عند نزول الضر بهم، وعدم التوجه إلى شيء من المعبودات الأخرى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(١٠).

د- التشنيع عليهم في التقليد الأعمى الذي لا يقوم على دليل ولا برهان سوي مطلق المتابعة التي ألغوا معها عقولهم، وصادروا تفكيرهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(١٢) إلى غير ذلك من الطرق التي جاء فيها إبطال ما هم عليه من الشرك في عبادة غير الله تعالى.

٣- إبطال دعواهم أن القرآن من افتراءات الرسول (ﷺ) وأنه غير منزل من عند الله سبحانه، ومما حكى الله سبحانه عنهم في هذا قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ...﴾(١٣) وكان أعظم رد على هذا الافتراء أن تحداهم الله سبحانه بأن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل سورة، فلما عجزوا وهم أهل الفصاحة والبلاغة وكانوا شديدي الحرص على إبطال دعواه، كان ذلك دليلاً دامغًا على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، وبالإضافة إلى هذا الأسلوب جاءت آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿الَر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(١٤) وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا

ائتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَـذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاء اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(١٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(١٦) وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(١٧). وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾(١٨) وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(١٩) كل هذه الآيات تدل على أن الرسول (ﷺ) لم يكن في هذا سوى مبلغ عن الله تعالى والآيات في وصف القرآن، وبيان عظمته والغاية التي من أجلها أنزل القرآن كثيرة جدًا.

٤- إبطال إنكارهم رسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فالمشركون كانوا ينكرون أن يكون الرسول بشرًا وتارة يقولون: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢٠) وتارة يطلبون نزول ملك عليه ليشاركه في مهمته: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(٢١) وأحيانًا يطلبون منه آيات خارقة، كالذي جاء في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾(٢٢).

وقد جاء الرد عليهم في صور كثيرة منها:

أ- بيان سنة الله تعالى التي جرت في أن يبعث إلى الناس بشرًا مثلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى ...﴾[٢٣].

ب- وهؤلاء الرسل البشر من شأنهم أن يأكلوا الطعام ويمشوا في الأسواق،وقال تعالى: ﴿وَما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ...﴾[٢٤] قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾[٢٥].

ج- بيان إن إرسال ملك مكان البشر، لا يكون إلا إذا كان المرسل إليهم ملائكة قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾[٢٦].

د- عدم قدرة البشر تحمل رؤية الملك على حقيقته في الدنيا لأنهم إذا رأوه على حقيقته فإما أن يصعقوا عند رؤيته، وإما أن يجعله الله بشرًا يأنسون به، ويطيقون التعامل معه، وعند ذلك يحصل اللبس عندهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[٢٧].

٥- مجادلتهم في أمر البعث والنشور، وجحودهم العودة إلى الحياة مرة أخرى كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[٢٨] وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا

﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾(٢٩) وأمثال هذه الآيات التي تتحدث عن جدالهم ومكابرتهم في أمر البعث والنشور كثيرة، وقد جاء الرد على ذلك بصور كثيرة منها:

أ- تنزيه الله سبحانه وتعالى عن العبث في الخلق وبيان أن عدم البعث والنشور لمجازاة المحسن والمسيء ما هو إلا ضرب من العبث، لأن الدنيا ليست دار جزاء، ولابد من أن يأخذ كل شخص جزاؤه، وهذا لا يتم إلا بعد البعث والنشور، وفي هذا الصنف من الأدلة جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾(٣٠) وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(٣١) وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(٣٢) وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم.

ب- لفت النظر إلى ما يجريه الله سبحانه من الإحياء بعد الموت في هذه الحياة، للإشارة إلى أن من قدر على ذلك فهو كذلك قادر على إحياء الموتى في الحياة الآخرة، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ...﴾(٣٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا...﴾(٣٤).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣٥) ومما ورد في هذا ما أجراه الله سبحانه لعبده ورسوله عيسى (ﷺ) من إحياء الموتى بإذن الله، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، والآيات في هذا كثيرة.

ج- بيان أن الإعادة أهون من البدء- أي في نظر الإنسان- والكل هين في حق الله سبحانه، وهم يعترفون بأن الذي بدأ الخلق هو الله وحده فإذا آمنوا بأن الله عز وجل هو الذي بدأ الخلق فقد لزمهم أن يؤمنوا بما هو أهون من ذلك وهو الإعادة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٣٦) وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾(٣٧) والآيات في هذا كثيرة.

د- لفت النظر إلى بعض مخلوقات الله سبحانه، التي هي أعظم وأجل من خلق الإنسان، وكأنه قيل لهم: أفيعجز الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة، أن يعيد هذا المخلوق الضعيف- وهو الإنسان- إلى الحياة مرة أخرى، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾(٣٨)، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣٩).

هذه بعض الأمثلة لما أورده القرآن من حجج الأعداء وتفنيدها بالحجج الدامغة.

• الفقرة الثانية: ومن أساليب الدعوة في القرآن الكريم وتوجيه الرسول (ﷺ) وأصحابه والأفراد إلى ذلك:

استخدام العدل معهم والوصية بالتعامل معهم بالعدل، فالظلم قبيح في منهج الإسلام حتى مع العدو.

١- من أن القرآن عندما يذكر بعض مساوئ الأعداء لا يعمم الحكم في حقهم عندما يكون بعضهم أبرياء من ذلك، وإنما يسند السوء إلى بعضهم كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾(٤٠)، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(٤١)، ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ...﴾(٤٢)، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي...﴾(٤٣)، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٤٤)، ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ...﴾(٤٥)، (ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرمًا ويتربص بكم الدوائر...)(٤٦) وهذا كثير في القرآن الكريم.

٢- ومن أساليب القرآن الكريم في الوصية بالعدل مع العدو، قوله تعالى: ﴿... وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...﴾(٤٧)، وفي شأن اليهود يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(٤٨) ويحذر سبحانه من الخيانة حتى مع العدو فيقول سبحانه ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاء إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(٤٩) أي أعلمهم بطرح العهد الذي بينك وبينهم، حتى تكون أنت وهم مستوين في العلم بذلك، وحتى لا تفاجئهم بالقتال، فإن ذلك خيانه، والله لا يحب الخائنين.

وقال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ

وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾[٥٠]، ويقول تعال: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[٥١].

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّواْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٥٢].

٣- ومن أساليب القرآن في الدعوة، ذكر بعض محاسن الآخر، من ذلك قوله تعال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ...﴾[٥٣]، ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ الله آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ...﴾[٥٤]، ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ...﴾[٥٥].

ويقول سبحانه عن صالحي أهل الكتاب: ﴿قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[٥٦].

ويقول سبحانه عنهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِالله وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ للهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيلاً...﴾[٥٧].

ويقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾[٥٨]. ويقول تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً...﴾[٥٩].

٤- ومن منهج القرآن في الدعوة فتح باب التوبة لكل العباد، مهما كانت معاصيهم، وعدم تيئيسهم من رحمة الله سبحانه. ورد ذلك بأساليب متنوعة من ذلك:

- قوله تعالى في شأن المشركين: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٦٠).

وقال تعالى:

- ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(٦١).

- وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَاعْتَصَمُواْ بِاللهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ للهِ فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(٦٢).

- وقال في شأن النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَـهٍ إِلاَّ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٦٣).

- وقال سبحانه في شأن طوائف الكفر مقرونين بذكر المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٦٤).

- وقال تعالى في شأن جميع العصاة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(٦٥).

٥- ومن منهج الإسلام في الدعوة، والترغيب في الإسلام، التوجيه

بحسن التعامل مع كل من أظهر الإسلام وعصمة دمه وماله وعرضه، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(٦٦).

ويدخل في هذا النوع الآيتان السابقتان ٥، ١١ من سورة التوبة.

• **الخاتمة:**

وأخيرًا فإن الدعوة إلى الله عز وجل تحتاج إلى طول ممارسة، وصدق مع الله تعالى، وحسن سلوك يتمثل فيه القدوة الحسنة، والهبات على الحق، والحكمة في التعامل مع الناس، وعدم اليأس، والصبر على البلاء، والفهم الصادق لنصوص الكتاب والسنة، والزهد عما في أيدي الناس، وإبراز محاسن الإسلام، والسعي في تحويل الإسلام من الجانب النظري البحت، إلى الجانب العلمي، والاهتمام بالتزكية للنفوس والتدرج في حمل الناس على التكاليف، وبخاصة في المجتمعات التي كثر فيها الانحراف، وحسن اختيار الأساليب والألفاظ، التي تفتح البصائر لمعرفة الحق وترغب فيه، على غير ذلك مما لا يمكن أن يعدمه مَن يصدق مع الله.

والله ولي الهداية والتوفيق والسداد

والحمد لله رب العالمين

• حواشي البحث:

(١) رواه البخاري في دلائل النبوة ٩/١١٨.

(٢) الحديث في البخاري رقم ٣٢٣١.

(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ١١٨.

(٤) البخاري: رقم ٦٠٥٩، ٦١٠٠، ٦٢٩٠، ومسلم ١٠٦٢.

(٥) آل عمران (١٥٩).

(٦) يوسف ١٠٨.

(٧) سورة ص الآيات من ٤،٦.

(٨) سورة الحج ٧٣، ٧٤.

(٩) سورة يونس ٣١، ٣٦.

(١٠) سورة الأنعام ٦٣، ٦٤.

(١١) سورة البقرة ١٧٠.

(١٢) سورة المائدة ١٠٤.

(١٣) سورة الأنبياء ٥.

(١٤) سورة هود ١.

(١٥) سورة يونس ١٥، ١٦.

(١٦) سورة الأعراف ٥٢.

(١٧) سورة الفرقان ٦.

(١٨) سورة فصلت ٤١، ٤٢.

(١٩) سورة النحل ١٠٢، ١٠٣.

(٢٠) سورة الزخرف ٣١.

(٢١) سورة الفرقان ٧.

(٢٢) سورة الإسراء ٩٠- ٩٣.

(٢٣) سورة يوسف ١٠٩.

(٢٤) سورة الفرقان٢٠.

(٢٥) سورة الأنبياء ٧، ٨.

(٢٦) سورة الإسراء ٩٥.

(٢٧) سورة الإنعام ٨، ٩.

(٢٨) سورة الجاثية ٢٤.

(٢٩) سورة الواقعة ٤٧، ٤٨.

(٣٠) سورة المؤمنين ١١٥.

(٣١) سورة القيامة ٤٦، ٤٠.

(٣٢) سورة ص ٢٧، ٢٨.

(٣٣) سورة البقرة ٢٤٣.

(٣٤) سورة البقرة ٢٠٦.

(٣٥) سورة البقرة ٧٢، ٧٣.

(٣٦) سورة يس ٧٨، ٧٩.

(٣٧) سورة الواقعة ٥٨، ٦٢.

(٣٨) سورة المنازعات ٢٧.

(٣٩) سورة غافر ٥٧.

(٤٠) سورة آل عمران ٥٧.

(٤١) سورة التوبة ٥٨.

(٤٢) سورة التوبة ٦١.

(٤٣) سورة التوبة ٤٩.

(٤٤) سورة التوبة ٧٥، ٧٦.

(٤٥) سورة آل عمران ٦٩.

(٤٦) سورة التوبة ٩٨.

(٤٧) سورة المائدة ٨.

(٤٨) سورة المائدة ٤٢.

(٤٩) سورة الأنفال ٥٨.

(٥٠) سورة الأنفال ٧٢.
(٥١) سورة الممتحنة ٨.
(٥٢) سورة التوبة ٤.
(٥٣) سورة آل عمران ٧٥.
(٥٤) سورة آل عمران ١١٣، ١١٤.
(٥٥) سورة المائدة ٨٢، ٨٣.
(٥٦) سورة الإسراء ١٠٧، ١٠٩.
(٥٧) سورة آل عمران ١٩٩.
(٥٨) سورة القصص ٥٢، ٥٣.
(٥٩) سورة الحديد ٢٧.
(٦٠) سورة التوبة ٥.
(٦١) سورة التوبة ١١.
(٦٢) سورة النساء ١٤٦/ ١٤٧.
(٦٣) سورة المائدة ٧٣، ٧٤.
(٦٤) سورة البقرة ٦٢.
(٦٥) سورة الزمر ٥٣.
(٦٦) سورة النساء ٩٤.

